

## الذكرى المئوية الاولى

لوفاة خادم الله الاب نعمة الله كساب الحرديني

( ١٨٥٨ - ١٩٥٨ )

بقلم الاب بطرس سازه اللبناني

مئة سنة مرت على جثمان رجل الله نعمة الله الحرديني اثاوي في ضريحه بدير مار قبريانوس كفيفان ، سليماً متمسك الاعضاء ، وكان وما زال ذلك الضريح مزاراً شهيراً وينبعاً فياضاً باشقية النفس والجسد . وقد رفعت دعواه الى رومية في السنة ١٩٢٨ مع رفيقه خادم الله الاب شربل مخلوف والراهبة رفقا ، بعد ان تبينت لجنة خاصة قامت بالتحقيق المحلي بحسب الاصول القانونية وأجري الكشف الطبي باسم السلطة الكنسية ، على ذلك الجثمان الطاهر ، فوجد على سلامته ، صامداً ضد عوامل الفساد .

وكنا نتنى ان نحفل بتلك الذكرى المئوية السعيدة احتفالاً باهراً اذا ساعدها الحظ بان تلتقي هي والذكرى المئوية الاولى لظهورات السيدة العذراء في مقبرة لورد ( ١٨٥٨ ) . ولان الاب نعمة الله الحرديني كان من اوفى واخلص المتبعين للعذراء الكلية القداسة وفي طلعة من حملوا لواء عقيدة الجبل يهبلة برينة من دنس الخطيئة الاصلية ، بعد اعلانها عقيدة ايمانية في السنة ١٨٥٤ . وكان من اشد المحرضين على الانحراف في اخواتها . وقد لفظ انقاسه الاخيرة وهو يقول :  
« فليكن مباركاً الجبل . بسيدتنا مريم العذراء البري . من الدنس » .

اجل لقد كنا نفوز بتلك الامنية ، لو لم تر السلطة المختصة ان مثل هذه المظاهرات قد تقف عقبة في سبيل الدعوى ونجاحها . لذلك اعرضنا عن مثل هذا الاحتفال واكتفينا بهذا المقال عن حياة ذلك الراهب المثالية المشعة باسمي الفضائل واكرم الصفات ، يا اخذ وعليها نسج في حياة ملائكية تليده خادم الله الاب شربل مخلوف . فكان كلاهما بطلي رهبان سارا في طريق الكمال المسيحي مجتهدى جبارة ورفعا علم الفضيلة عالياً في سماء لبنان وقاح شذا فضائلها فطر سائر الاقطار وتردد صده من وراء البحار .

ان لنا في تراجم اوليا، امه اعظم عبرة واسمى موعظة واسطع دليل على تلك القوة الروحانية التي تدبرغ من الانسان الترابي ملاكاً سماوياً وتأتي به من عزلة الدير وصمت الصومعة فتقيه افصح لسان يذيع بمجد الله وتتميل كلالته الالهية في وسط سبط فيه المادة على الروح وطرحت بهذا العالم في مهاري القلق والاضطراب ثماً عجز المفكرون واساطين الياسة عن مداواته باستقرار السلام الحقيقي .

على اننا نرى ان أنجيم دواء وأصلح وسيلة للسلام المنشود انما هو مطالعة حياة اولئك الابطال الذين ضهروا في العالم كالتيرات تضيء على المتسكين في ديجور الكفر والضلال فتقبل بهم الى نور الهداية والحق وترفعهم من عالم المادة الى اجواء الروح حيث يشرق عليهم ذلك الاشعاع الالهي بما فيه من خير وحق وجمال فيفتنون مندهشين : « تجد الله في قديسه » .

اليك شماعاً من ذلك الاشعاع الروحاني يفسر تلك النفس البارة ويسطع في كل مرحلة من مراحل حياتها البالغة ذروة الكمال ولماً تتجاوز المقد الخامس من العمر .

### نشأته

على منبسط من جبال لبنان الشمالي - قضاء الترون - تقوم قرية تسمى بيت كساب تابعة لقرية حردين المشهورة بحسن هوائها وحفاة سمائها ومائها وجودة اراضيها ، ونحوه ابتانها الذين عرفوا بطيب عنصرهم وكرم اخلاقهم وشديد تمسكهم باهداب ائدت القويم . حردين الرابضة في سفح ذلك الجبل لا يقل علوها عن البحر عن الالف متر . تمتد عن جنبها الاودية الكثيرة التعاريج وتحفرها التلال من كل ناحية وتضل على منطقتي الكورة والزارية ، حيث ترى النباتات الفخمة واليبوت العديدة بين كروم الزيتون الفضة ، كانتها جزيرة في وسط تلك البحيرة الخضراء الفيضة الازرق . .

في تلك القرية الرادعة اُخُلِّقَ طفل على الحياة في مطلع القرن التاسع عشر ( ١٨٠٨ ) ، من والدين فاضلين هما برجس كساب وسريم وعد ، قد ارضعاه مع الحليب لبان القري والفضيلة . وما اصطبغ بما . الهاد ، وأفرغ عليه اسم يوسف

حتى لفس ثوب الذمة ناصماً وأخذ ينسو بالقامة والحكمة امام الله والناس ، محاطاً بعناية والديه التققن اللذئن لم يذخرا وسماً في تربيته التربية المسيحية الصحيحة باشرابه المادى. القووعة والاداب السليمة بالقول والمثل. فسب الفقى على اساس البر والصلاح ومال بكل ما فيه الى حب الفضيلة ، تضرم قلبه نار المحبة الالهية فتسكب به عن لهر الصيان اترابه وتدفعه الى ملازمة الهكل على مثال الفقى صموئيل ، يدمن الصلاة ويحضر الذبيعة الالهية كل صباح .

واذ رأى فيه ابواه ميلاً شديداً واستعداداً حناً الى القراءة. ولم يكن في القرية مدرسة لتعليم الاحداث ، ارسله الى مدرسة لمؤهبان اللبانيين التابعة لدير مار انطونيوس حوب قرب قسبة تنورين ، حيث اقام في بيت جده لأمه . فانكب على درس مبادئ اللتين العربية والسريانية وحقائق التلميم المسيحي مع بعض القواعد الحسابية ، كما كانت تسير عليه المدارس الابتدائية في تلك الايام. وكان من المتازين بين اقرانه. ولم يقصر همةً على تلقن القراءة والتسرين على الكتابة ، بل كان يأخذ عن اساتذته الرهبان الافاضل دروس الحياة الروحية النفسية راعياً فيها كل الرغبة .

وما تأهب واقدم على المناولة الارلى وحل جسد الرب في قلبه حتى ازداد اشتاقاً بنار المحبة للسيد المسيح سجين المحبة في سر الافطاسنيا فاتخذ عريس نفسه لا يتفصل عنه مدى الحياة ، مترثاً بنشيد الاناشيد : « حبيبي لي وانا له ( ١٦ : ٢ ) »

وكنت تراه ، وهو فقى ، يصرف الساعات بكاملها امام القربان المقدس ، يتاجيه مناجاة الابن اباه ويكشف له مكشوفات قلبه. وكان مثال التلميذ النشط يطيع اساذه اطاعته اباه ويعا في رفاقه ويحبهم محبة اخوته . وكانت نفسه النقية ، بعد ان تفذت خبر الحياة وطعام الملاذكة ، تزداد يوماً فيوماً تسعاً بمعرفة الله واشتاقاً بكرالانه تعالى بحيث يراها ماثلة لديه في المناظر الطبيعية البديعة : فما مر يوماً بتلك البقعة من الصرود اللبنانية الغاتة الا اتبسطن لديه تلك المشاهد الرائمة الجميلة : جبال شاذة تتفجر من بطونها الينابيع الدديدة ، تحيط كالهالة بتلك السهول الواسعة وتصب فيها الحياة والحصب وتقنيا بالزروعات وتجعل منها باتين وجنات غناء .

كان يوسف الفتي يمتع النظر بتلك المشاهد البديعة ويفرق فيها بما اوتي من عقل ثاقب ومخيلة نقية صافية وايمان حي، فيتأمل صورة الله في مخلوقاته، ترحي اليه الجبال عظيمة الخالق وقدرته غير المتناهية، والمياه الفياضة جودته تعالى . والاشجار والازهار على مجاري المياه والمزروعات الغضة تصور له جمال مبدعها . ومنها يرتفع بناظره الى القبة الزرقاء . وعالم الفضاء فيذهل من ذلك المنظر العجيب وما فيه من نظام بديع ويهتف مع النبي داود المرتل : « السماوات تديع بمجد الله والفلك يحجر بعمل يديه ( مزمر ١٨ : ٢ ) .

يمثل هذه الثقافة الثمينة السامية في بساطتها وبذلك الاستعداد الحسن المبشر بما يكون هذا الصبي ، عاد يوسف الى بيت ابيه وانكب على مساعدة والديه بالاشغال البيتية مقدماً لها طاعة الابن الابرار لا يعرف تمباً ولا نصباً في ارضاء الله تعالى وابويه . واذا تراكت عليه الاشغال وتصيب جبينه عرقاً ، ذكر الآية الكريمة : « بمرق جبينك تأكل خبزك » ( تكوئين ٣ : ١١ ) . يياشر جميع اعماله بيذه النية والروح الطيبة ، لا يعرف للبطالة وقتاً .

ولم يكن يهمل شيئاً من واجباته الدينية كالصلاة وسماع القداس كل يوم ومناولة القربان الاقدس بتمام الورع والخشوع . يقهر جسده بالامساكات وضبط الحواس قماً لاهوا . النفس واميالها المنحرفة وكبحاً لتروق الشباب وجماحة . وكان في آدابه ونشاطه خير مثال للشبان ارفاقه الذين كلوا يرون فيه صديقاً حياً ومرشداً حكيماً يقيمهم عنثات الشبهة البطرة ويقودهم بقود العقل السليم المستنير بنور الايمان الى ما فيه خيرهم ونجاحهم .

وما ناهز المقد الثاني من العمر حتى تكشفت له الدنيا عن غرورها وأحيت نعمة الله في قلبه وذهنه تلك التذكريات الجميلة يوم كان فتياً دارساً على اساتذته الرهبان امثلة الفضيلة والتقوى ، فشاقه ما كان يراه فيهم من الامثلة الصالحة وروح الزهد والنشاط والاعتكاف على الصلاة والعمل وغير ذلك من ضروب التقشف والعبادة وبممارسة التأمل والصمت ، كما جعله يصغي الى صوت الله يدوي في قرارة نفسه : « ان اترك عشيرتك وبيت ابيك واحمل صليك واتبعني » . فلم يتردد في تلبية صوت الدعوة هذا . وما لبث ان سار في طريقه وملاك الرب يرافقه ، حتى وصل الى دير مار انطونيوس قزحياً ، دير الابتداء ، الرابض في

سفع الراضي المقدس والمشهور بقدومه وبكونه مزاراً يؤمه الناس على اختلاف نحلهم ومذاهبهم لنيل نعمة او للاستشفاء من مرض . ولتقد لقب « قزحيا » اي كثر الحياة ، لما يجري الله فيه من الخوارق على يد القديس انطونيوس الي الرهبان ، او لما يتدفق فيه ومن حوله من المياه العذبة الرائزة الى تلك النعم والمواهب .

### المبتدئ

الى هذا الدير وصل الشاب يوسف كساب صاحب الترجمة طالباً الدخول في الرهبانية . وكان في دير قزحيا آنذاك الرئيس العام الاب اغناطيوس بليل<sup>١)</sup> يقوم بزيارة قانونية ، ولما وقع نظره على هذا الشاب توهم فيه حسن الاستعداد ودلائل الرصانة والتقى ، فامر رئيس الدير وقتئذ الاب مكاربيوس الشحورزي بان يقبله . فامتثل الامر وادخله سلك المبتدئين في غرة تشرين الثاني سنة ١٨٢٨ . وهو في المقد الثاني من العمر . وحلّاه باسم « نعمة الله » ومنذ ذات الحين عرف بالاخ « نعمة الله الحرديتي » . وكان اسمه مطابقاً مستاه وجاء خير قال لما يكون منه في مستقبل الايام ، اذ عمرته النعمة الالهية منذ الجبر وما برحت تزداد وتسر فيه حتى بلغت به اعلى ذرى الكمال والقداسة .

وليس يخاف ما في الابتداء من الصعوبات والمحن ولا سيما في ذلك العهد . على ان الابتداء في نظر القديسين ، كما ترسمه قوانين الرهبانية ، هو كذا التجربة ، فيه يتخص المبتدئ كما يتخص المدن في النار . او هو مدرسة الفضية فيها يتخرج الطالبون على خبرة الآباء فطنة وعلماً وتقى ويسمون السعي الجدّي في تحصيل الفضائل المسيحية والرهبانية لتكون لهم عدة في استقبال ليشاء برب الكمال واصلاح ما فيهم من الشوائب ومكافحة بما يطرأ عليهم من التجارب .

١) هو الذي ترأس على الرهبانية مدة سبعة عجاه اي ٣١ سنة متتالية حداثا نور رنة دير مار موسى الحبشي ودير مار انطونيوس قزحيا ( ١٧٩٩-١٨٠٥ ) وكان صديقاً حميماً للامير بشير الكبير حاكم البلاد وهذه الصداقة تمكن من تادية اجل الخدم للرهبانية ونهبرها وله بروج الفضل في انشاء دبري مار مركيس وباخوس في قرطبا ومار مارون غنايا حيث ضريح بخادم الله الاب شربل .

وما هي ايام وديال تنقضي حتى لمع نجم ذلك الطالب المتديّ الجديد ،  
 وظهر بما فيه من ارادة قوية ورغبة شديدة في اقتباس تلك الفضائل واطماً نصب  
 عينه مثال السيد الاعلى ، مقتنياً آثاره في طريق الصليب ، راغباً في ان يزداد  
 كفراناً بنفسه وتجرداً عن الدنيا ، وعلى مثال ابيه القديس انطونيوس كان  
 كالنحلة التي تجني العسل من الازهار يجني ثمار الفضائل من مرشديه واخوته ،  
 فلا يرى فضيلة في واحد منهم الا اكب على ممارستها واقتباسها . ولا تقع  
 عينه على نقص الا انمض الطرف عنه . وكان يسلكه هذا ونشاطه في اقام  
 واجباته ، قدوة لجميع اخوته المتدينين . لا يرتاح قلبه الا في مناجاة الله ربه .  
 اذا قام الرهبان للصلاة نصف الليل ، استمر ساهراً في الكنيسة حتى الصباح  
 وكثيراً ما كان يجي الليالي يجملتها امام القربان المقدس لا يفارقه الا يشق  
 النفس ، وبعد ان تأمره الطاعة فيخرج من الكنيسة مرعماً متنبهاً باكياً .  
 ولم يكن أدنى منه في حفظ النظام ولا اسرع الى مباشرة الاشغال . يستحضر  
 الله امامه عند كل عمل يتعاطاه روحياً كان او زمناً . ولكثرة ما كان يمارسه  
 من الاماتت الشاقة ، خشي الرئيس على صحته وعلى الاخوة الراغبين في الاقتداء  
 به ، فأوقفه على حدٍ بحيث يكون في مأمن من التعرض لحظر المرض ، فلم يرد  
 بدأ من الاذعان للنصيحة ولاسر الطاعة المقدسة .  
 على هذه الحطة المثلى اكل الاخ نعمة الله سنتي التحربة ونال ثقة رؤسائه  
 ومرشديه ومحبتهم له . فقدموه لابرار النذور الرهبانية بعد ان استعد لها برياضة  
 روحية مدة ثمانية ايام كما تنص القوانين ، فابرز نذوره الاحتفالية في ١٤ تشرين  
 الثاني السنة ١٨٣٠ وافرغ عليه الاسكيم الملائكي رئيس دير تزجيا الاب  
 مكاريوس الشجوروي .

ولا تسل عملاً ناله من الفرح والابتهاج بعد ان قدم ذاته بالنذور محرقة كاملة  
 لله ، موقناً انها معمودية ثانية غمرت نفسه بالنعمة وخولته حرية ابناء الله واعتقه  
 من قيود المادة والمحبة الذاتية ، فاصبح كالنسر ينحلق في الاجواء الروحانية . لا  
 هم له الا با عاهد الله به بوجوه المشورات الانجيلية بكل امانة ودقة ، عاقداً  
 القلب على الكفران بالذات وحمل الصليب وراء الاله النادي ، متغلباً على ما  
 يعترضه من مصاعب وعقبات . يسير بقدم راسخة ونفس جريئة وعزم شديد

وايمان متين ، مردداً قول رسول الامم : « اما انا فحاشي لي ان افتخر الا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به جلب العالم لي وانا صلبت للعالم » .  
( غلاطية ١٤:٦ ) .

### الراهب الدارس

أرسل الاخ نصعة الله بعد ابرازه نذوره الى دير مار قبريانوس قرب قرية كفيقان ، ليكون في صف الاخوة الرهبان الدارسين . ولم تكن المدرسة في ذلك الهدى على دقتها ونظامها الحاني ، فان الرهبان الدارسين كانوا يتماطرون مع الدرس الاشغال اليدوية في الحقل كالخضاد وتقب الارض وتربية دود الحرير والقيام بجميع الخدم الديرية ، وممارسة الصلوات الفرضية في الحرورس حتى صلاة نصف الليل يرقتها مع الرتب الديرية . وبالرغم من ضيق الوقت كانوا يتقنون اللاتين العربية والسريانية ويدققون في علم اللاهوت الادي ودرس بعض القضايا الخامة من اللاهوت النظري .

وقد تخرج في هذه المدرسة منذ افتتاحها ( ١٨٠٨ - ١٨٧٤ ) نحو مئتين وستين كاهناً اشتهر كثيرون منهم بعلومهم وقداة سيرتهم كصاحب هذه الترجمة ورفيقه ، تلميذه الاب شربل مخلوف وغيرهما ممن أتوا بأجل الخدم والاعمال في الرهبانية والطائفة . ومن تلاميذ هذه المدرسة الاب انطونيوس القنالي الذي اتقن اللغة العربية ووضع فيها بعض تأليف في فن العروض وارجوزة في المعاني والبيان وكتاب « ينوع السلوان في زيارة القربان » ، لاجل الانفس المطهرة ، وقد جددنا طبعه ( ١٩٥٦ ) لما فيه من الصلوات الحارة والمواظب الشريفة<sup>(١)</sup> .

عرف الاخ نصعة الله ارادة رؤسائه في تمييزه بين مصاف الاخوة الاكليزيكيين فانكب على الدرس والمطالمة بكل قلبه وحن استمداده وكان الله تعالى ينير عقله وفيه قسهل لديه كل صعوبة في تحصيل العلوم ومجاورة

(١) وله ايضاً معجم في اللغة العامية . وكان يرجى منه الشيء الكثير لما نحلى به من مواهب نادرة واخلاق كريمة كما يشهد به اساتذته وبينهم الاب نصعة الله الكندي الذي كان ساجداً به اسفاً شديد الاسف على فنده اذ فاجأته المنية ولم يتم العقد الثالث من العمر (٢٦ سنة) .

المعلم اللاهوتية التي امتاز فيها حتى كان يقصده الاخوة الدارسون لحل بعض مشاكلها. يطرحون عليه الاسئلة مها كانت صعوبتها ، فيجيب عليها بكل وداعة ورحانة واذا حسي وطيس الجدل في قضية ، كان يبادر اياه ، كما يفرض القانون ، بكلمة « اغفر لي » وعندها يُحجم كل جدال. وكانت ترن في اذنيه آية الرسول : « اللهم ينفع والود يبني » ( كور ١-٨ : ١ ) فينبذ بعيداً كل فكر عجب وكبرياء ، ولم يكن ليكتفي بركم مراد التلميح في ذهنه فقط ، بل يمد الى تثقيف العقل والقلب والارادة فيصهرها في قالب الكمال الانجيلي ، علماً ان تلك هي الثقافة الصحيحة التي بها تبني الشخصية الانسانية والقداسة الحقة وبها تستقيم الاحكام في الاشياء والاشخاص ، ورتقى الانسان مراتي النجاح والفلاح. وقد وضع نصب عينيه هدفاً واحداً لا يجيد عنه قيدشجرة ، هو محبة الله والترب في الله ، موقناً أن كل كمال وخير انما مصدره الله وحده اصل كل علم وحكمة . فاخذ يباليغ في حفظ القوانين والفرائض الرهبانية ، حتى كاد يؤدي به التدبير فيها الى المرض والوسواس .

فظن الرؤساء انه في حالته هذه لا يقوى على متابعة الدروس اللازمة للكهنوت . فأسروا بفعله عن الاخوة الدارسين وارساله الى دير مار موسى الجبشي في المتن . فامتثل الامر حالاً ممتقداً ان هذه ارادة الله فيه . ما هته ان يكون في الرهبانية كاهناً او راهباً اخاً بسيطاً ، بل حصر كل هنه في ارضاء الله تعالى وتقديس نفسه . حبه ان يصل الى غايته هذه باحدى الطريقتين كما يريد الله . فسار الى دير مار موسى حيث وجد متسماً من الوقت للاستقراة في بحر المحبة الالهية وما لبث مدة حتى اخذ يزيد في ضرورب التقشف والاماتت والدقة في حفظ القوانين والقيام بجميع ما يكلف به من الخدم الديرية ، فادهش الناظرين اليه من رهبان وعالمين ، فاعجبوا بما كانوا يرون في هذا الراهب الشاب من سمو الفضائل وجليل المناقب . فاجبه الجميع واتخذوه قدوة لهم في القداسة والكمال المسيحي .

لا يبعد ان تكون شهرة تقواه وقداسه هذه ، مدة اقامته في دير مار موسى ، قد تركت ذكراً طياً واثراً عميقاً في قلوب من عرفه او سمع به في جهة المتن من المجاورين والبعدين ، حتى شامت العناية ان تخص تلك الناحية من

جبل لبنان بأولى وابهر معجزة اتاها الله عن يد صفيه هذا بعد وفاته ، كما سئرى .  
لذلك كنا وما زلنا نرى الكثيرين من جهات المتن ، بمن نالوا الاشفية  
العجبية بواسطته ، يزومون دير مار قبريانوس كفيفان لايفان . نذورهم ولزيارة ضريحه  
والتبرك بجمته واخذ شيء من آثاره .

على ان العنايه الالهية نفسها التي جعل كل اتكاله عليها ، كانت ترعاه  
بعينها الساهرة ، وتسنده بذراعا القديرة ، مُعدة اياه لامر خطير ، فأوجبت على  
الرزاء ارجاعه الى دير كفيفان لاستئناف دروسه تحميقاً لما يعاق عليه من  
الآمال نظراً لحسن ساوكة واستعداده الطيب ، وتفوقه على رفاقه الذين هللوا  
لرجوعه اليهم ، لما كانوا يستفيدون منه فضيلة وعلماً .

عاد الاخ نعمة الله الى ما كان عليه من نشاط ودقة في التعليم بجميع  
واجباته الرهبانية والمدرسية . وكان يتعاطى فوق عمله العقلي ، مهنة الحياطة  
وترتيب ثياب الاخوة وتوزيعها وغير ذلك من الخدم ، سالكاً مسلك الراهب  
الصالح الذي لا هم له سوى ارضا . الله ربه يحفظ نذوره ، عالماً ان جوهر حياة  
الراهب وكيان الرهبانية نفسها قائم بحفظ النذور الثلاثة : الطاعة والعفة والفقير  
الاختياري التي هي اشبه بثلاث حلقات متساكنة بعضها ببعض بحيث يكون  
انفكاك احدها سبباً لانفكاك غيرها ، ولذلك يحدونا الحكيم بقوله : « ان  
لا تنذر خير من ان تنذر ولا تبني » ( الجامعة ٥ : ٣ ) .

رسخت هذه الآية في ذهنه ، فقام بايفان نذوره على اكل وجه جاعلاً مثاله  
الاعلى يسوع المسيح مصدر جميع الكلمات ، القائل : « انا الطيرين والحق  
والحياة » ( يوحنا ١ : ١٠ ) ، « فلا طيرين اذن الى الكمال ولا هداية الى الحق  
ولا حياة مسيحية ورهبانية ، إلا بالاتحاد به تعالى اتحاد العنصر بالكرمة ، كما  
صرح بقوله عز وجل : « انا الكرمة وانتم الاغصان من يثبت في وانا فيه يأتي  
بشر كثير لانكم تدوني لا تستقيمون ان تعلموا شيئاً » ( يوحنا ١٥ : ٥ ) .  
على هذه الآية الكريمة جمن الاخ نعمة الله دستور حياته ومحور جميع اعماله  
مقتدياً برسول الامم القائل : « ان حياتي هي المسيح ... ( فيلبي ١ : ٢١ ) .  
انا حي لا انا ، انا انسيح عو الحي في ( غلاطية ٢ : ٢٠ ) رأى المسيح طائماً  
حتى الموت فمات تخليه عن ارادته الذاتية متسلماً لارادة الله التي كان يتبعها

محسنة لديه بإرادة الرئيس. اذا دعت له لاسره او لعل، سمع صوت الله يناديه ونظر الى الرئيس نظره الى شخص المسيح كما يفرضه القانون. وكان يؤثر المرؤوسية على الرئاسة شاعراً بما عليها من عظم المسؤولية. لذلك لم يكن يقبل وظيفة الا اذا انتدبته السلطة مباشرة، او بطريق الانتخاب القانوني، كما وقع له ان انتخب ثلاث مرات لوظيفة المديرية.

ولم تكن الوظيفة في نظره سوى خدمة في جنب المصلحة العامة لاجل فائدة الجمهور، كان يقوم بها بمنتهى التفاني والاخلاص كما شهد بذلك كل من عرفه مديراً واستاذاً للدرسة الرهبانية في دير كفيفان. مدة ست سنوات كان فيها مثال المثقف والمربي الحكيم يبعث في عقول تلاميذه، مع العلم روح الفضيلة والتحلي بالتقوى الصحيحة، والرغبة في احترام السلطة التي هي من الله، مشوقاً اليهم الصعود في درجات الكمال درجة درجة، يرشدهم بنصائح الابوية، ويقودهم بمثله الصالح، ويمكن القول: انه كان لهم ولذيرهم في الرهبانية، قانوناً حياً في حفظ النظام الديرى، موقناً ان السير بحسب النظام على ما توجهه الفرائض، هو اقوى سلاح لمكافحة البطالة ام الرذائل، واخف وسيلة للسلوك بروح الطاعة المقتضية.

اما عفاة، فحدث عنه ولا حرج. لقد تسمى بهذه الفضيلة، الى حد انه كان فيها اشبه بالملك منه بالانسان اللابس الجسد الضعيف. وبما انه كان بمزاجه العصبي معرضاً لكثرة التجارب، اعتمص بنعمة الله واخذ يروض ما فيه من الاميال والشهوات الطبيعية ليقيم من جسده هيكلًا للروح القدس عاملاً بقول الرسول: « اقم جسدي واستعبده لئلا اذلل انا الذي بشرت آخرون » ( ١ كور ٩: ٢٧ ). وما يروى عنه انه لا كان في دير قزحيا جاء الدير زائراً احد علماء النفس البارفين بالفراسة. واذا وقع نظره على الحرديني وتفرس فيه قال لاحد الرهبان: « كيف يمكنكم ان تقبلوا بينكم هذا الرجل الشهواني؟ » فاجبه اذأب: « ماذا تقول، انه لقديس عظيم نقتدي بفضيلته وطهارته » فاردف السائل معجباً: « ان كان كذلك فهو حقاً اعظم مكافح، لاجم جماع الحيوانية في الطبيعة البشرية ».

ان مزاجه العصبي كان يميل به ويعرضه الى أشد التجارب، ويزجه في ثوران

الشهوة ، فيشر بداخله شعور القديس بولس ، بان فيه سنة تناقض بينه ضيقه  
فالحير الذي يريده لا يعمله ، والشعر الذي ياباه ، يرى نفسه مائلة اليه ( رومية  
١٥:٧ و ٢١ ) فيصرخ مع الرسول القائل « من ينقذني من جسد الموت هذا » .  
لذلك كنت تراه يباليغ في قمع الجسد الى حد غير مألوف ، ممارساً جميع انواع  
الاماتت ، جاعلاً من اسكبه لثاماً او حجاباً على عينيه حتى لا ينظر الى امرأة ،  
او الى فتى امرد ، مردداً قول ايوب البار : « عاهدت عيني ان لا افطن في  
عذراء » ( ايوب ٣١ : ١ ) بل اذا صودف ان رأى في طريقه ما يعرضه  
للتجربة ، تحوّل عن الطريق فراراً من السبب . وكان البعض يمدون تصرفه هذا  
ضرباً من الجنون او المغالاة والوسواس . ولم يكن ذلك منه ، الا حفاظاً على  
زينة طهارته ودرتها الثمينة فلا تمس باذى .

وما ذلك الا لما كان يحس به من حدة الشهوة وثورانها . ولا عجب في  
الامر . فان القديسين أرقّ الناس شعوراً ، ولا حدّ لهظهم وعاطقتهم وشديد  
رغبتهم في محبة الله والقريب . وهم في معارك الطهارة يكافحون مكافحة الابطال ،  
مدججين بسلاح النعمة الالهية وترس الايمان وعزم الارادة القوية ، لتكون النفس  
سيّدة لا عبدة رقد للجسد . ويبقى مثلها الاعلى ما هو فوق الطبيعة ، تترج الى  
وترغب فيه . وبما ان الطبيعة نفسها هي مدخل النعمة ومقرها ، تكسل وتتجمل  
وترقى بتأثير الروح القدس الحلال فيها ، دون ان تفقد شيئاً من كيانها الطبيعي  
وفاءيتها ، لذلك لم تكن النعمة لتطفئ . فينا نيران الشهوات ، بل انها ترويض  
جواحها ، وتحسن تنظيمها بلطف ، مقدمة لها غذاء ، اسمى واشرف . على ان الشهوة  
قوة وشي . حسن بذاتها ، شرط ان تمدل وتنظم . لذا قيل بصواب : « لا اقوى  
من الشهوة في العابدين المزمين بحب الله تعالى وما من قلوب اطيب فطرةً واشد  
حباً وحرارة من قلوب القديسين » . وان كانت المحبة في اعماق جميع الشهوات ،  
كما تعلم الفلسفة ، وهي تعب وتفضع عنها ، فهلا تكون ديانة يسوع المسيح  
اقوى حين وهذب للشهوات . وهي ديانة المحبة الصادقة والمتفانية في عمل البر  
والصلاح ؟

على هذه الحطة الشريفة سار رجل الله الحرديني في ترويض ما كان يتنازع  
من الشهوات الجسدية بعد ان صبها في قالب الامانة ، واحكم قيدها بالنظام

والقانون ، مرجهاً بها الى هدف سام فوق الطبيعة ، متميماً من اللذة الجسدية ،  
بلذة سحابة سامية ، اليها ترتاح نفسه ، وعندها يسكن ضميره ، ونحوها يصرخ  
مع الملك والنبي داود : « من يعطيني جناحي الحمامة لاطير واستريح ( مزموذ  
٧:٥٤ ) . لقد جعل كل راحته ولذته في يسوع حبيبه ، الاله المتأنس ، فادي  
البشرية ، وحبيب القلوب ، وموضوع كل حب وكال وجمال . وهل من جمال او  
كمال او غبطة يسكن عندها القلب البشري مثل هذا المثال الاسمي ، ولهذا  
كان رجل الله مستغرقاً في هذا الخضم ، ولا يلذه سوى التمتع بذلك الجمال  
والكمال الالهي الباهر . بذلك تظهر روحانيته بوجه اخص . وقد آلى على نفسه  
الا يميل بقلبه الى حبة خليفة الا في ذلك الجو الصافي النقي ، فتحضن في دوه  
واحاط زنبقة طهارته بسياج اشواك الامانة والتقشف لتبقى ناصعة الياض نضرة ،  
موتناً أن جسده انما هو هيكل الروح القدس يحفظه شريعاً تظيفاً . ولما علم ان  
تلك الزنبقة الجليلة لا تبيض الا في تربة التواضع ، وفي جو الامانة ، غذاؤها  
الصلاة والصل ، أخذ بممارسة هذه الفضائل على الوجه الاكمل .

درس على معلمه الالهي ، وهو التلميذ الحكيم العاقل ، هذه الامثلة الشريفة :  
« تعلموا مني ابي وديع ومتواضع القلب » ( متى ١١-٧ ) ، فاقام بناية كاله  
على صخرة نوداءة والتواضع المسيحي . وعرف ان بناية الكمال لا تقوم شامخة  
ثابتة الا على هذا الاساس المتين الذي هو ميزة الديانة المسيحية ومصدر جميع  
الفضائل واحده . الطهارة الملائكية ، ذاكرأ ما قاله القديس برنردس في كلامه  
عن الضد . مريم : « ان البتولية والتواضع فيها صنوان . كانت نفسها مرضية  
فه الذي جعل ممرته فيها ، لان تواضعها اقام وزناً لطهارتها والبتولية تاج الاتضاع  
وزينته . نست اتوزع عن القول بأنه لولا التواضع ، لما سُرَّ الله بطهارة مريم  
نفسها ، ولو لم تكن مريم متواضعة ، لما اصبحت متودعاً للروح القدس ، ولو  
لم يجل فيها ، لما جلت بالكلمة الالهي . فاتضع اذن انا قبل ان تجبل من  
لروح القدس ، كما جهرت هي نفسها : « نظر الله الى تواضع امته » ( لوقا ١٤:٤٨ )  
اكثر من نظره الى بتوليتها ، فان ارضت الله بطهارتها ، فبهي مع ذلك قد جلت  
بتواضعها . والحقيقة اذن ان الله بسر بطهارتها ، لاجل تواضعها . القديس  
برنردس عظته الاولى في التجدد . على ان التواضع لا يبني حسة النفس والحيانة ،



خادم الله نعمة الله الخرديني يصلي



فسرح خادم الله نعمة الله الحرديني

فالتواضع الحقيقي ، وان أقرّ بعجزه امام العظمة الالهية وسلك مع القريب مسلك  
الانس واللفظ والوداعة وكان حلياً رؤوفاً ، فهو مع ذلك كبير النفس أيها ،  
جري لا يباري عن احقاق الحق والجهر بالفضيلة ومقت الرذيلة . على هذه القاعدة  
سار رجل الله الحزبي بتواضعه ووداعته مع الجميع . وبالرغم مما كان عليه  
من مزيج حصي وأنفة في الطبع ولا سيما بما يمرض فضيلته الى ادنى عطب او  
مساس ، فقد عرف ان يدلل بحكمته التواضع جراح طباعه ويصحبها في قالب  
الحل الالهي الذبيح ويقم من ذاته حملاً رديماً لا ياحك ولا يصيح ، يلاطف  
الاخوة جميعهم ويمد نفسه بينهم آخر الجميع ، راضياً بالاحتقار والاهانة اقتداءً  
بالسيد المسيح القائل : « ليس تلميذ افضل من معلمه ولا عبد من سيده ( متى  
٢٤: ١٠ ) . وفي تقلده الرئاسة كان يزيد في وداعته وتواضعه ، مُضيقاً على نفسه  
متساهلاً مع مرؤوسيه متى دعت الظروف ، شرط التقيّد بما تقرضه القوانين ،  
تاملاً بقول الحكيم : « اذا جمولك رئيساً فلا تتكبر بل كن بينهم كواحد  
منهم ( سي ١: ٣٢ ) .

اما اماماته فلم يكن لها انقطاع ، ولم يكفّر بالصوم الدائم ولبس المسح  
وغير ذلك من ضروب الامامة الخارجية فقط ، بل كان يتمند الامامة الباطنة  
ايضاً ، مضجياً بارادته واحكامه الذاتية ، مستسلماً لارادة الله في كل حال : في  
الحياة والموت في الصحة والمرض على السواء . يخوض غمار المصاعب والبلايا  
جديداً باسلاً لا يهاب ولا يجزع فيخرج من الممارك ظافراً .

كلفه مرة الثلث الرحمة البطريرك بولس مسد بفضّ خلاف في تدويرين ،  
قتل في دار الشيخ فارس طريه واضطرب بوقته ان يغسل بيده المسح الذي كان  
يلبسه ، فلم يصابه صاحب الدار بذلك وقدره قدره ، فرجاء رجل الله بكتمان السر .  
وكان معتصماً بفضيلة الصبر في جهاده وامراضه المسببة عن مكته الترابيل في  
بيت الله وامساكه عن الطعام وتحمل البرد القارس في الشتاء ، ما عدا توارص  
الكلام من بعض الثقلاء المستخفين بطريقته . قيل ان شقيقه الاب اليشاع حبيب  
دير مار مارون عنايا ، كان يلح عليه ويدعوه الى دخول اخبسة ليكون واياد في  
سلام وطمانينة ، فيجيبه قائلاً : « يجب ان نعيش بين جهور الاخوة في الاديار  
ونحمل بصبر وثبات ، ما يلحقنا من الهزم والاحتقار . بهذا يزداد اجرنا ونكفر

عن آثامنا ونعمل بقول الرب من يصبر الى المنتهى يخلص « (متى ٢٤ : ١٣ )  
وبصبركم تقتنون نفوسكم ( لوقا ١١ : ١٩ ) .

### رجل الصلاة والتأمل

لقد أصفى رجل الله الى آية الحكيم الذهبية : « لما علت باني لا اكون  
عفيفاً ان لم يهيني الله العفة ، توجهت الى الله وسأته من كل قلبي » ( حكمة  
٢١ : ٨ ) . فصورنا لطهارته الممتازة كان يصل ليله بنهاره في الصلاة الى الله والتعب  
لامه العذراء . كنت تراه يرتفع بقلبه وعقله الى العلاء ، نافذاً حجب القويم وعالم  
النجوم ، ضارعاً الى العلي ليسند ضعفه في الحرب الروحية ، فيهتف مع المزمع :  
« اليك رفعت عيني يا ساكن السموات ... كما ان عيني الامة الى يد سيدتها  
كذلك عيوننا الى الرب الهنا ... » ( مزمور ١٢٢ : ٢١ ) . وهي الطلبة التي  
يتوارها الكاهن كل يوم في القداس قبل رفعة الكأس .

وكان كالنسر يخلق في سما القداسة بجناحي الصلاة اللفظية والعقلية مستغرقاً  
في اوقيانوس العزة الالهية ، متمسكاً بمحقات الديانة المسيحية وعواقب الانسان الاربع  
فتصفر في عينه الدنيا وما فيها من اباطيل ، فيرداذ اتحاداً بالله وينال من جودته  
تعالى جميع النعم اللازمة للقيام بواجباته الرهبانية والكهنوتية الحق القيام ، على  
الرغم مما كان فيه من ضعف وهزال مسبب عن مرض المعدة الدائم . وفضلاً  
عماً كان يمارسه من صلوات فردية ، كان لا ينقطع عن مشاركة الجمهور في  
صلوات الحورس حتى في نصف الليل ، كما كانت المادة في الرهبانية . ويمكن  
القول بان خلاصة حياته كانت سلسلة صلوات متواصلة الحلقات . اذا دخل المبد  
اشرق بحياه مسرة وغبطة وغصاص في بحر التأمل بالرب يسوع حبيبه في سر  
القربان الاقدس يصرف امامه الساعات الطوال ومن ينبوعه الفياض يستقي جميع  
الفضائل ولا سيما التواضع والصبر والفقر بالروح الذي امتاز به كما تفوق بطاعته  
وعفائه . كان الفقر أليفه وسيمره ، لا يطلق جسي . من حطام الدنيا ولا يختار لنفسه  
من كدوة وقوت وفراش الا الادنى في الدير ، شرط ان يكونه نظيفاً على  
مثال القديس برزودوس الذي كان يرضى بالثوب المرقع النظيف . واذا انتقل من  
دير الى دير آخر لا يأخذ معه حتى قلماً من قصب للكاتبه دون اذن الرئيس ،

كما حدث له مرة بعد خروجه من دير قزحيا، وما وصل ليدته شي. من صدقات المحسنين، او حصل بتعبه شيئاً الا سلمه الى وكيل الخرج في الدير. ومن دخل قلبه رأى البساطة والفقر سائدين فيها.

ورغمًا عما كان عليه من مرض المدة، استمر محافظاً على العيشة المشتركة فلا يتناول من الطعام الا ما كان معداً لجمهور الدير. وكثيراً ما كان يتناوله بارداً اذ كان يضوم باذن الرؤسا، حتى الظهر وكان الرهبان قدماً لا يتناولون سوى وقتين في النهار اي الساعة العاشرة قبل الظهر والحامسة بعده.

وكان مبالياً في تجرده عن الازل والانسبا. منصرفاً الى خدمة ربه ورهبانيته ولم يدخل بيت والديه، مدة حياته الرهبانية، سوى مرة واحدة وكان رفيقه الاب نعمة الله الكفري. وقريته حردين لا تبعد كثيراً عن دير سكناه مار قبريانوس كفيفان. كانت والدته قدمت له مندبل يد، فلم يحتفظ به بل دفعه الى رفيقه، كي لا يكون بين يديه ما يحمله على التفكير بالاهل والبيت - وقد مارس هذا التجرد التام عن العالم، أخذاً بقول صاحب الاقتداء: «كلما سرت الى الناس، عدت من بينتم اقل ما كنت عليه من انسانية» (الاقتداء، سفر اول فصل ٢٠). وكان يقول: «الزاهب في ديره ملك في قصره، دولته رهبانيته وجنوده اخوته الرهبان ومجده فضيلته وقداسته وتاجه تواضعه وطهارته وبرفيره فقره وطاعته... اكرم بها من حكم. سامية واقوال غسجدية املاها عليه الروح القدس الخال فيه. فبيناً لمن يفكر فيها ويعمل بها ا.

### الكاهن

بعد ان اكل الاخ نعمة الله درس اللاهوت وأدى عنه فصلاً نال به تلام. فاحصيه، ارتقى درجة الكهنوت المقدسة في ٢٥ كانون الاول (١٨٣٣)، عيد ميلاد الرب بالجسد فكان ذلك اسد قال لولادته البكثورية وله من العمر خمس وعشرون سنة. وتم ذلك بوضع يد المطران سمان زوين النائب البطريركي على عهد المثلث الرحمة البطريرك يوسف الحيشي (١٨٢٣-١٨٤٥).

١٠ رقي الدرجة المقدسة حتى أخذ يزداد ارتقا. في سلم الكمال والقداسة ،  
 عالماً ان سمو هذه الدرجة التي تزرع تحتها مناكب الملائكة ، تستلزم الارتقا.  
 والتقدم في الفضيلة . وانه لو لم تنتدبه السلطة لها لما اقدم عليها ، بل آثر ان  
 يكون في مصاف الرهبان الاخوة مكثياً يحظ مرتاً لانه اتى الزهبانية ليخدم  
 لا ليخدم ولما لم يكن له مجال فيح ليقيم بكل ما تقتضيه القيرة الكهنوتية ،  
 اقتصر ، بحسب حالته وطريقته ، على تكميل نفسه والجماعة التي كان يتيم بينهم ،  
 بل كان بثله الصالح وشهرة قداسته رسولاً يبشر بالمسيح كل من عرفه او سمع  
 بسيرته في جميع انحاء الجليل . ولم كان يتسنى لو اراده الله ان يكون شهيداً  
 يسفك دمه في حب المسيح .

وقد علم ان الذبيحة الالهية التي يقدمها كل يوم انما هي ذبيحة الصليب  
 الدموية التي قدمها القادي الالهي على جبل الجابطة لما فيها من الثمار والمفاعيل  
 غير المتناهية ، فلم يكن يقدم عليها إلا بعد ان يستعد لها الاستعداد الذي تستحقه .  
 يقوم نصف الليل الى تلاوة صلاة الفرض على الحورس مع الجيوبور كما أسلفنا ،  
 ثم يحضر جميع قداديس اخوته الآباء الكهنة ، ويصرف ساعات انام القربان  
 المقدس بالتأمل والقراءة الروحية ، ثم يعترف بخطايه ، ولو لم يكن عليه مادة  
 ضرورية ، لانه يعتبر ان الاعتراف فعل اتضاع عميق يسره الله تعالى ، وبه يارس  
 المعترف افعال الفضائل الالهية : الايمان والوجاه والحجة . وقد اتخذها خطة سار  
 عليها مدة حياته الكهنوتية . واذا تبرم مرشده من سماع اعترافه كل يوم ، كان  
 يقف امامه متذللأ باكياً ليسح ويسع له .

كنت تحاله وهو على المذبح ، منخطف الروح . عقله وقلبه في الحمل النبوي  
 بين يديه . تلوح على جبينه امارات الفرح والخشوع . وقر الساعة وهو على حرار  
 ايمانه الحمي ومحبه يسوع القربان والمقرب الاول ، فلا يدانيه فتور او ملل  
 واذا انتهى من القداس صرف ما بقي من الوقت بالشكران بتاجي ضيف  
 الكريم باصدق عواطف الحب مردداً افعال السجود والشكر والتكفير والطلب  
 ثمار الذبيحة الالهية . وقد لازم خطته هذه مدة كهنوته خمأ وعشرين سنة  
 ما كان يهمل اعمال القيرة على خلاص النفوس ، رغم رغبته في العز  
 والانجاس في الدير . فانه كان يسمي في تنشيط الجميع الى عبادة الله عبا

صحيحة ، نافذين عنهم غبار القنور والتواقي . متمسكين بالتفوى الحسنة والقيام بالواجب حفاظاً على نفوسهم المشتراة بدم المسيح . وكلما سنحت له فرصة ومكنته الظروف كان يجمع السذج والاولاد ويشربهم روح الفضيلة ويلقنهم قواعد الدين بالتعليم المسيحي ويهدتهم طريق الخلاص .

ومن آثار غيرته في نشر عبادة قلب يسوع الاقدس ، تحريضه الجميع على الاشتراك فيها ، نائراً اياها في الاديار بين اخوته الرهبان وفي الخارج بين الملانين وهي العبادة التي كانت تدفعه الى التمد لسر القربان الاقدس ، وتوجيه جميع عواطف قلبه واشواقه اليه ، والسجود امامه ليل نهار ، كما ذكرنا . ومن تعبده لقلب يسوع الاقدس حصل على فضيلة الاتحاد العجيب بالله تعالى اتحاداً لم تصده عنه الاشغال الزمنية اية كانت بحيث كان يتوذي توجيهها لمجد الله عز وجل . فمن رأى سكونه ورحمته وسمع تنهداته وزفراته ، عرف في الحال ان قلبه وفكره في السماء . ولهذا كان متفرداً في اتقان الحياة الباطنية .

### اكرامه وعبادته لسيدتنا مريم العذراء

لما علم ان مريم العذراء ام الحمل الالهي هي ام الاطهار وشفيعتهم وانها الطريق السوي المؤدي الى الاتحاد بابنها يسوع المسيح ، أخذ يجهد في طلب شفاعتها ويبالغ في اكرامها وكانت محبة لها دونها محبة الابن لانه . لم يفتقر من التحدث بذكرها والتلفظ باسمها الكريم . ومتى دهمته تجربة ، هرع اليها طالباً شفاعتها ، صارخاً : « يا عذراء ساعديني » . ولم ينفك عن الشغوص الى ايقوناتها المقدسة ، متنفساً الصعداء . كأنه يود الخروج من الجسد ليرتفع برويتها السيدة في دار الخلود . وما دخل قلبه مرة او خرج منها ، الا جثا امام ايقونتها المعلقة في الحائط وحياتها بالسلام ، مكبراً فيها ، على الحضور ، الجبل بها البرني من الدنس ، حتى قبل تحديد هذه العقيدة . فاحبت البتول ان تجازيه على اكرامه هذا بان نقلته اليها اثر الاحتفال بميد الجبل بها برينة من رصة الخطيئة الاصلية . وكان يخص الكثيرين على عبادتها ولا سيما على الاشتراك في اخوية قلبها الاقدس واخوية الجبل بلا دنس .

وقد انشأ هذه الاخويات في اديرة الرهبانية بموجب الاذن المطى له . يتلو ورديتها كل يوم ، منفرداً او مع رفيق يساعده وينعص في التأمل بأسرارها . ولم يهمل الاشتراك في ثوب سيدة الكرميل ويرغب كل الرغبة في مطالعة كتاب « أنجاد مريم » للقديس ليكوري ، جاعلاً اياه سحبه يذوق بمطالعة طعم العسل ويضمه قرب وسادته ليل نهار . وكثيراً ما كان يردد هذه العبارة التي لازمته حتى النفس الاخير : « فليكن مباركاً الحبل . سيدتنا مريم العذراء البري . من دنس الخطيئة الاصلية . مشيراً باقوال اعظام القديسين ، كالتقديس فرام : « انت بريئة من السب خالية من الدنس ، منزهة عن وصمة اية خطيئة على الاطلاق . ان فورك ابهى من الشمس والقمر وكواكب الرقيع ، لان انوار هذه تقرب ، أما فورك فهو مشرق الى الابد . انت اعلى من السماء واسمى من الكارويم وارفع من السارافيم . كل اتكالتنا عليك ، ايها الكلية نقاوتها » . وقوله المشهور : « فلتصرخ عظامي من القبر ان مريم هي والسدة الاله ، وان خامرني ريب في ذلك فلتتيم النيران عظامي » .

والقديس ايرونيسوس : « لو تحولت اعضاؤنا جميعاً الى السنة ، لما امكثت ان نفيا حقاً من المديع . فاني مهما قلت فيك ابقى مقصراً ، ان قلت انك اعلى من السماء . وازك ام القبايل وسلطانة الملائكة وصوره الله ، فذلك القاب قاصر عن مدحك »

بثل هذه المذائب اللذيذة كان يتفتى ذلك الموسيقىار الروحاني ، مطمناً عظم محبته وتطقه الشديد باسم البترول الكلية القداسة ، يتمثلها كما ظهرت ليوحا الحبيب ، ملتحفة بالشمس تحت قدمها القمر وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً » ( رؤيا : ١٢ : ١ ) . واكراماً لها لم يكن يقتات ايام السبت وبيرمونان اعيادها وفي الشهر المريخي بكامله ، الا بالزيت والملح وبعض البقول . وكانت هذه الاله الرووم تشده في جهاده وتغربه في محنه وامراضه وتنصره في معاراة الطهارة وفي جميع ما يتابه من التجارب .

## المدير والرئيس

لقد شا. الله ان يلقي على عاتق خادمه مسؤولية الرئاسة والمديرية ، اذ اراده ان يكون السراج المضيء على منارة ليرى الجميع نوره . فانه ، رغم فراده من الوظيفة ، آبى عليه اخوته الرهبان الا ان ينتخبوه مديراً في ثلاثة مجامع اي مدة تسع سنات لكي يرتشدوا بأرائه ويحمله مثلاً حياً امامهم . فلم يرَ بدأ من الانصياع لاسر الله المنفذ اليه باسم الطاعة المقدسة ، سائلاً الرب نعمة خاصة للقيام باعباء الوظيفة . ومما ساعده على قبولها كونها وسيلة لانعاش روح الكمال والمحبة بين اخوته ، كما كلتوا يرغبون ، لما يرون فيه من العيرة على حفظ النظام والمقاواة في سبيل المصلحة الرهبانية .

على انه بتواضعه كان يقر من كل ثنا . ومديح بشري . واذا خاطبه احد باسم الرئاسة العامة وانه سينتخب لها لما يرجى منه من الخير والنجاح للرهبانية ، امتعض وقال : « الموت ولا الوظيفة » ، لشهوره بتباعد الجفاء . واذا قيل له ان الله يريد له لاجل خير الرهبانية ، اجاب : « كذا سر . مشيئة تملأ وارادته والدته الطوباوية ، ان لا اصير رئيساً » . وان قلوا له : كيف تعلق ذلك ؟ اجاب على الفور : « ان البتول مريم قالت لي » .

وما كان ينظر الى ما في الوظيفة من شرف نعمة . بل الى انها خدمة تمنحها الصحيح ، يؤذيها بكل ما فيه من غيرة وبشره وامانة . بيدي رايه بتا توجيهه اليه الحكمة الالهية ويدير جميع تصرفاته بحسب نص القوانين من دون محاباة ومراعاة ، متزهاً عن كل عرض وميل بشري ، هذبه واحد لا يجيد عنه : « الله والرهبانية » . يعمل بالمساواة بين الجميع ويغار على سيره مروسيه بروح المحبة والفضيلة .

على هذه الحطة سار في السنوات الست التي تقهدها فيها رئاسة دير مار جبريئيل كفيفان وادارة المدرسة الرهبانية فيه ، بعني تهذيب النفس اذهباني على سنن الفضيلة والعلم الصحيح . محرضاً تلاميذه على الجهد والنشاط والاخلاص بحق ربهم ورهبانيتهم ، ريسير امامهم منكباً على المطالعة والدرس ولا سباً

اللاهوت الادي الذي امتاز فيه كما سهر بالحياة الروحية مستنيراً بالهام الروح القدس . لا يني عن بذل النصح لتلاميذه بان يقرنوا العلم بالفضيحة الراسخة والا كان وبالأعلى صاحبه وعلى الرهبانية والكنيسة كما يبثه التاريخ - ويوصي الجميع بالمحافظة على الوقت الثمين وبمكافحة البطالة مصيدة ابليس . ولم يكن هو نفسه يدع برهة تمر من دون عمل . فكنت تراه اذا انتهى من الصلاة والمطالعة ، هرع الى القيام ببعض الخدم الديرية المفيدة . وكان قد اتقن مهنة تجليد الكتب ، يقوم بها حتى وهو في وظيفة المديرية . وما يحصله منها يقدمه للرئيس ليصرف في مصلحة الجمهور . وبما انه كان يعظ بثله اكثر من كلامه ، فينقاد اليه المرؤسون بل الرضى والاختيار .

وما عم ان طارت سمعة تقواه في البلاد وانتشرت قداسة سيرته انتشار أريج البنفسج المختبئة . فتسم شذاها جماهير الرهبان ، كما شدا بذكراها العالميون في اكثر الانحاء . حتى كان يضرب بها المثل ليس عند الرهبان فحسب ، بل عند العامة ايضاً ؟ فكانوا ، اذا ارادوا تبيان فضيلة احدهم ، قالوا : « انه مثل الحرديني » .

ولا عجب بعد هذه السيرة الملائكية ان يكون الله علام الخفايا ، قد أشرك صفته هذا في شيء من معرفة الغيب والعلم بما كان وشيك الوقوع من حوادث الايام والمخاطر كما رواه المشاهدون ومنهم الاب نعمة الله الكفري الذي عايشاً وسبر غوره ووضع الاساس لترجمته<sup>١</sup> وهو ثقة في ما رواه لما تحلى به من تقوى راسخة وضمير حي ، قال : « انه ، بينما كان ذات يوم ، مشتغلاً بتجليد الكتب ، اذا بعاصفة هوجاء تهب مندرة بضرر جسيم . فما شعر بها حتى هم لساعته ونادى احد الاخوة : ان اذهب حالاً وقل لوكيل الحقل ليخرج الابقا من الحارة قبالة الدير » . فضعك منه الاخ ولم يعبأ بقوله . فصرخ به عندئذ وشدد عليه الامر والا وقع ما لا تحمد عقباه ، فنحنها امثال الاخ الاسرود ان اخرجوا الابقار من القبر حيث كانت ، حتى انهار من اساسه . فزادت تقته برجل الله واحترامهم شخصه المجلل واوامره وآراءه الصائبة » .

## وفاته وشفاعته لدى الله

ولما رأى الله ان عبده قد نضح واصبح ثمرةً دائية القطوف ، اراد ان ينقله من دار الشقاء وساحة الجهاد ليكمله بالاكليل الذي وعد به مجاهديه الظافرين .  
 ففي اوائل شهر كانون الاول من السنة ١٨٥٨ اصيب الاب نعمة الله وهو في كفيغان بدا . ذات الجنب المزلم واشتد المرض عليه فاضطر ان يلزم الفراش ، ثم انتابته ادوار الحتمى الشديدة وعجز الاطباء عن شفائه . ولما احس بان اجله قريب ، اخذ يستعد للاقاة ربه وطلب الاسرار المقدسة . وكان جمهور من الآباء والاخوة حاضرين وفاتبه ومنهم تلميذه الاب شربل مخلوف والابوان نعمة الله الكفري ودانيال البشراري مرشده . وكان جميعهم متأثرين متمججين بما رأوه في هذا الرجل البار من طسأينة القلب وشفاء النفس ، ما لا يشمر به في حشجة الموت وسكراته ، غير اصفيا . الله الابرار . ولما اشتدت وطأة الحتمى وغاب عن وعيه ، سمع الحاضرون يكرر صلواته المتادة : « فليكن مباركاً الجبل بيدتنا مريم العذراء البري . من الدنس . » . وكان ، اذا ثابت اليه نفسه ، التفت الى ايقونتها امامه ، ملتسماً شفاعتها حتى اسلم الروح وهو يقول والابتسامة تطل ففوه :  
 « بالسلام ارقد وانام . يا يسوع ومريم ومار يوسف ، بين ايديكم استودع روحي . »  
 فسلمت البتول روحه الطاهرة في ١٤ من شهر كانون الاول ١٨٥٨ . نصف ليل الثلاثاء بعد رئاسة الاب لورنسيوس الشباني العامة على الرهبانية ورئاسة الاب نعمة الله التولاوي على الدير المذكور . فعم الاسف الجسيم على هذه الحسارة الجسيمة وعلى المحجاب ذلك الوجه النبيل وكوكب الفضيلة الساطع في سما الرهبانية اللبنانية التي استضات بنوره مدة ثلاثين سنة وقد فاخرت وما تزال تفاخر بفضائله النادرة .

## روحانيته

يجلوا لنا الآن ان نتنقل ، ولو قليلاً ، في مطاوي تلك النفس الجميلة وان نسر غور تلك الشخصية المتأخرة ، ما استطعنا اليه سبيلاً ، مكررين أسفنا على

ان لا يكون لدينا معلومات مسببة عن اطوار حياة رجل الله هذا. وكما كنا نتمنى لو اقدم هو نفسه على كتابة سيرته ، وابقى لنا أثراً من مراسلاته وان قليلة نادرة ! فاكفينا بسردي حياته قائلين مع الشاعر :

« والنفس راغبة اذا رَغِبَتْهَا      واذا تَرَدُّ الى قليل تقنع »

حينما ان نرى تلك الشخصية الفذة ، وقد لبست الوقار وشاحاً واتخذت النعمة سلاحاً ، تسير بقدم الجبار ، شوطها في الحياة ، متكفئة على اجل الاعمال واسماها ، متحدة بالله الذي منه كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة ( يعقوب ١٧: ١ ) . كانت البساطة في العظمة والوصت الناطق بكلمة الحق وجمال الفضيلة . نفس كبيرة وثابتة الى الملا ، صُفرت في عينا الدنيا نظارت مجناحي الايمان والمجبة يسوع ربنا وحييها ، اتخذته في سر الافخارستيا نحيها وسيرها . ارادة مرهفة اعتصت بالرجاء . واستهدفت الخير الاسمي لا تقف بوجهها مصاعب وعقبات . ان الرهبانية كانت تجوز في تلك الحقبة من الزمان ، اخرج الظروف مما لا يساعد على الدقة في حفظ القوانين والحياة النظامية ، لا طراً عليها من التراخي وما تسرب اليها من عادات تنافي غايتها . ولذلك كان رجل الله الحرديني يقف في وسط تلك المصاعب وقفة الجندي الباسل ، مثابراً على خطته القانوتية بكل دقة وحزم ، يشجع كل اخوته على اقتحام الصعوبات واحتمال المصاعب موجها اليهم كلامه المشهور : في مثل هذه الظروف والاحوال ، « الشاطر يخلص نفسه » . وهو يعني بذلك ان الراهب الماقل النشط صاحب الارادة ومعبا النعمة ، لا يتنى عن حفظ قوانينه ولا يرجع التهورى منها . كانت الظروف . وعليه ان يترجم براه من خلل ، مر الكرام .

ان الملك الرحمة السيد فريديانو جيانيني القاصد الرسولي آنذاك ، وهو من رجال الكنيسة العلماء المفكرين ، عندما وقف على هذه الميزة في حياة الاب الحرديني ونظر في ملف دعواه ، قال : « حب هذا الراهب قداسة أن يكون

حفظ قوائمه ، على رغم ما كان يحيق به من المصاعب . ولما عرف بوفاته المثلث الرحمة البطريرك بولس سمع وهو من اعاضم بطاركة الطائفة المارونية ، قال : « بالحقيقة هذا الرجل تهرب كما ينبغي فهيناً له » . انه لكلام بليغ يتضمن ، على ايجازه ، اسمي معاني الكمال الرهباني .

اليك ما قاله فيه الاب ميتر اليسوعي ، رحمه الله ، اذ كان مدير المعهد الاكليريكي الشرقي في جامعة القديس يوسف - بيروت - وهو من الآباء المشهود لهم بالعلم والتقوى . وقد جاء دير مار قبرياوس كفيفان وطلب ان يزور ضريح الحرديني ، لما كان يسمع عنه . وما ان دخل المبد الخاص ووقع نظره على ذلك الجثمان الراقد في صندوق من خشب الاينوس<sup>١١</sup> ، حتى جثا هو ومن معه واخذ يصلي خاشعاً متأثراً . ثم سأل : ماذا كانت سيرة هذا الراهب وما هي اعماله الممتازة ؟ - فأجيب انه كان مثابراً على حفظ قوائمه بكل دقة . فقال : كفى انه لقديس حقاً لان قداسة الراهب قائمة بحفظه القوانين . وهذا رأي علماء الروح بهذا الشأن .

أمّا مئات الخوارق والمعجزات التي جرت حول ذلك الضريح واهمها شفاء العمى وكسح مقعد في جهات المتن ؛ فقد دون بعضها معاصره وسميه ' الاب نعمة الله الكرمي المار ذكره وهو رجل ثقة لما تحلّى به من دقة النظر والضمير الحي . واذا كان رئيساً عاماً على روزنامة الدير او سجل العجائب هذه المباركة بنصها الحرفي :

« انا المدون اسمي بنذيله ، كاتب حياة الطيب الذكر الاب نعمة الله الحرديني ، اشهد امام الله والناس اني لم اكتب شيئاً فوق ما عرفته عن هذا الرجل الفاضل ،

(١) هو الصندوق الذي قدمه المنفور له الطيب جورج شكر الله الذي كان سجعاً بالاب الحرديني وبلاشنية العديدة القريبة التي كانت تجري حول ضريحه . وقد خبر الار حدا الطيب بنفسه .

بذاتي او ما سمعته من اتاسر صادقين عاينوا وشاهدوا ما قالوه لي . هذا وبعد  
مراجعة ما كتبه وتعمنت فيه ملياً قد مضيت بحظ يدي وسهرته بحتم وظيقتي لاجل  
البيان والمصادقة . واذكر ايضاً ان راهبنا الاب روقايل البزغوني الذي كان  
حاضراً ساعة مرته ، قال لي انه شاهد ، وقت انفصال نفسه البارحة عن جسمه  
الطاهر ، شيئاً من النور البهيج خرج من فمه . وهكذا انقطع خيط حياته  
المقدسة .

نحريراً في ٣٠ كانون الثاني ١٩٠٦

١٠ ( الختم ) كاتب

نسة افه الكفري

اب عام لبناني